

المدينة العربية

منشأ المدينة العربية - كان الإسلام كالنصرانية مباحاً للدخول فيه لكل إنسان فإذا اسلم المغنوب يدخل في زمرة المؤمنين وكانت العرب الحنص في الصدر الأول التي تدعو أنفسها السود تحقّر هؤلاء الداخنين في الإسلام المدعويين بالحنس السبيل ولكن الحنفاء وضعوا مبدأ المساواة قال عمر من الظلم أن يحتقر المرء أخاه المسلم. وقد أخذ الروم والفرس من دخلوا في الإسلام لو ظنوا غنى دينهم وهم أعراق في المدينة يتكلمون بالعربية ومزجوا عاداتهم بعادات الفاتحين وخرج العرب متوحشين من قفارهم فتحضروا كما كان شأن الرومان قديماً وراحوا يمدنون الشعوب البربر التي مازالت غنى توحشها في أفريقية كما مدنت رومية ببربر إسبانيا وغاليا.

بغداد وقرطبة - هذه المدينة العربية التي نشأت في الشام وفارس هي شرقية محضة فقد اقتدى حنفاء دمشق بمنوك فارس فكانوا يأوون إلى قصورهم المنطة بالمرمر الأخضر وفي وسط الفناء حوض عظيم يفيض فيقي حديقة غاصة بالطيار وحوله عيده يغرن فيشرب شراباً بجاء الورد وكانت العاصمتان التان أسمها الحنفاء وهما بغداد وقرطبة أحسن حالاً فإن بغداد مدينة العجائب أنشئت في بضع سنين وكان لها أربعة أبواب من حديد تحيط بها قبة مذهبة وكان غنى الداخل لنوصول إلى القصر أن يجتاز ثلاثة ميادين وثلاثة أبواب وكان القصر مدينة مغلقة وسط المدينة. وفي ردهة الاستقبال شجرة ذهب أعصافها الحجار الشينة واسود مفيدة وأحواض ومياه منجحة ترطب الهواء وكان حنفاء القاهرة حديقة أشجارها من ذهب وأزهارها من الجوهر وبلاطها من الزمرد. قالوا أنه كان في قرطبة في القرن العاشر مئة ألف دار وستمئة جامع وثمانون مدرسة وثلثمائة حمام وثمانية وعشرون ريضاً. وقد سميت الراهبة هروسويسا الألمانية مدينة

قرطبة بجوهرة العمام وكان الخليفة في قرطبة كنا في بغداد يستدعي الشعراء والمغنين ويعيدهم مئونة حقائبهم من الذهب. ولأغنياء التجار أيضاً حدائق مئونة بالزهور والشجار العطرة والبسط الفاخرة وأقمشة الحرير وآنية الفضة وطوب بلاد العرب التي يحرقونها في مجامر ذهب. وهكذا بذخ الشرقي يرغب في الثمين الفاخر أكثر من رغبته في الموافق السهل.

الزراعة - من أول واجبات الحكومة أن تفتح الترع اللازمة لزراعة الأرض. وهذه كانت قاعدة أمراء العرب التي جروا عليها وحفروا الآبار وجازوا من غثروا غنى الينابيع بالماء ووضعوا المصطنحات لتوزيع الماء بين الجيران فإن مصر والشام وبابل هي من البلاد الحارة التي تخصب وأي خصب عندما يسقونها قد عننت العرب قينة الماء وطريقة الانتفاع منه فنقلوا إلى إسبانيا أسنوب النواعير التي تمتح الماء والسواقي التي توزع. وإن الهورتا (٩) في ضواحي بنسية وهو سهل مزروع كما تزرع الحديقة هو من بقايا حومة العرب وديوان المياه الذي كان يفض مسائل السقيا نظته العرب.

وقد استعملت العرب جميع أنواع الزراعة التي وجدوها في ممتلكهم وجمت كثيراً من النباتات إلى صقلية وإسبانيا وربوها في أوروبا فأحسنوا تربيتها حتى لتظنها وطنية وذلك مثل الأرز والزعفران والقنب والملش والبرتقال والكباد والنخل والهيون والبطيخ الصفر والعب العطر والورد الزرق والصفر والياسمين بل والقطن والقصب وقد دخل هذان الصنفان منذ اكتشاف أميركا.

الصناعة - وجدت العرب في الشام وفارس صناعات قديمة نقلت إلى جميع البلاد الإسلامية فتكملت ومنها نشئت صناعة أوروبا الحديثة. وكانوا يعنون في معامل الزجاج في بغداد والشام زجاجاً معولاً بالياقوت والصدف وتخرج من معامل الأسنحة

العربية الفولاذ العجمي والبطقانات المنحنية في البصرة والسيوف في اليمن ثم أخذت سورية تصنع النصال الدمشقية المشهورة وإسبانيا السيوف المسقية في طليطنة. ويحكون في جبال آسيا الصغرى السجاد من صوف ذي وبر. وفي دمشق قماش الدمسك وأقمشة القصب وأقمشة الحرير والصوف الدقيقة ويصنع الشاش في الموصل. وقد انتقلت الرسوم العجمية التي كانت تزدهر بها هذه الأقمشة من طبرستان وأسود وفيند وحيوانات ونباتات يتخيلونها (ويرد عهد بعضها إلى الآشوريين) إلى تزييناتنا الحديثة وكان يعمل الورق في سمرقند وبغداد منذ القرن العاشر وربما قلدوا في صنعه الصينيين ومن هاتين العاصمتين انتقلت صناعة الورق إلى صقلية وكساتيفا (؟) في إسبانيا. وكانت في الغرب معامل الجند الشهيرة وهي مثال الجند القرطبي (الكوردواني) نسبة لقرطبة (ومن هنا اشتق بالإنجليزية اسم كوردونية أي صانع الأحنية) كما يصنع السخيان (المازوكين) نسبة إلى مراكش. ويعمل في بغداد السكر الذي كان اختراع في بلاد الفرس وكانت العرب تحسن عمل المربيات والشربة والخبز الناشفة وروح الورد.

التجارة - عاش الشعوب في بلاد العرب الواسعة كما كانت الحال على عهد الرومان من أقصى المنكبة إلى أقصاها بسلام وراحة يتقاضون حاصلات أرضهم ومصنوعات معاملهم ويرحنون إلى الهند والصين يتعاونون مصنوعات الأمم الصناعية ليحتملونها إلى الشعوب البربرية في أوروبا وكانت الصناعات تنقل في البحار على مراكب وفي البر على ظهور الجنائز وللعرب مرفان تجاريان عظيمان متصلان بالعاصمتين أحدهما البصرة على خليج فارس كان يفتح للعرب بحر الهند وهناك تفرغ مراكب العرب وهي قادمة من الهند تحمل العطور والأباريز والعاج وتجيء الجنوك الصينية تحمل جميع صنغ الذك

والحرير وتعود بالرجاج والمكر وماء الورد والقطن. والإسكندرية هي المرفأ الثاني فتحت على العرب طريق البحر الرومي وإليه كانت تصل مراكب إيطاليا فالبصرة مرفأ بغداد والإسكندرية مرفأ القاهرة.

وتسير القوافل من بغداد إلى كل ناحية فمن الجنوب الغربي تقصد إلى دمشق وسورية وإلى الشرق نحو البصرة والهند ومن الشمال إلى طبريزون على البحر الأسود حيث كانت تحمل بضائع المسنكة البيزنطية وإلى الشمال الشرقي إلى سمرقند وبحر الخزر حيث كان يذهب التجار ليأخذوا جنود روسيا وشمعها وعسنها. وكانت القوافل من القاهرة تسير إلى الغرب في الطريق العظيم الذي يحاذي البحر على طول ما را بطربلس والقيروان لينفذ من طنجة التي كانت تصل إليها تجارة إسبانيا ومن الجنوب طريق يصعد منها إلى النيل حتى بلاد السودان وآخر يسير على الشاطئ الشرقي من أفريقية حيث أنشأت العرب مقدشو وكنوة وسفالة. ومن هذه الجهة كان يجيء التبر والعاج والعيد. وكان في جميع المدن العظى كبغداد والقاهرة ودمشق والقيروان وطنجة وقرطبة وسمرقند حي للتجارة (البيازار) يعرض فيه التجار أمتعهم ويتفقون على الأسعار.

العلوم - يقول المثل العربي من سار في طلب العلم سهل الله له طريق الجنة وكثير من الرجال من ساحوا أشهراً في طلب حديث روي عن الرسول وبالْحَقِيقَةُ أَنَّ الْمُسْلِمَ يَعْنِي عناية خاصة بعلم الكتاب وفي البلاد الإسلامية كنا في المسيحية يفضلون تعلم الفقه. فقد كان الطالب في مدارس قرطبة يقضي أربع سنين في تعلم قراءة القرآن وثمان سنين في حفظه ثم يتعمنون الكتابة وهكذا كان يتخرج العناء وهم عناء في الفقه والكلام إذ ليس القرآن قانوناً دينياً فقط بل هو قانون مدني. ومن دراسة تراكيب القرآن نشأ علم النحو وما برح المسنون يبرحون من العلوم الكلام والفقه والنحو وكان في

الخواصر مدارس يمتنع إليها من يرغون في التعلم أو التعنيم وهؤلاء الأساتذة المرتجون كانوا ينقون دروسهم عناً بدون مقابل أو لقاء رواتب يدفعها عنهم الحضور. وأنشئت في القرن العاشر في بغداد ودمشق وسمرقند مدارس كنية حقيقة تدفع الحكومة رواتبهم.

وحفظت في مدارس الروم في دمشق والإسكندرية عنوم الروم من فنك وجغرافيا ورياضيات وطب فجمع عناء الإمبراطورية البيزنطية رومهم وعوهم وفرسهم هذه العنوم وأكثروها ونشروها وقد كتب أحد عناء العرب أول كتاب في الجبر ترجم إلى اللاتينية ووصف جغرافيو العرب البلاد البعيدة التي كانت القوافل تحتف إليها. واستخرجت العرب من كتب الطب اليوناني الطب التجريبي الذي كان المعول عليه في القرون الوسطى وهو طب العقاقير والحبوب وكانوا كاليونان يحضون عن داء يشفي من كل الأوصاب ولكن أهم ما غلب على العرب من عنوم عنم الكيمياء وكان يجبه إليهم أميران مرعيان لعقل الشرقي وهما العنور على حجر الفلاسفة الذي يحول جميع المعادن إلى ذهب والإكسير الذي يعطي الحياة ويعيد الشباب وكانوا يحاولون إخراجها بمزج كل مادة وإغلاتها وتقطيرها فوق الكيمابيون في أنابيبهم وأدوات استخراجهم ما لم يكونوا يحضون عنه فبدلاً من الإكسير حصل معهم الألكحول (١٦٦٩) ثم بعد زمن بينا كانوا يحضون عن حجر الفلاسفة وجدوا في أديان الفوسفور. وظلت الكيمياء وهما ولكن نشأت منها الكيمياء الحديثة كما نشأ قديماً في بلاد الكندان عنم الفنك من عنم التنجيم.

فتون العرب - لم يكن للعرب كما للرومان صناعات وطنية خاصة بهم فكانوا إذا احتاجوا إلى قصور أو جوامع يعبرونها أولاً على الطراز الفارسي أو البيزنطي مثل

جامع دمشق ولكن لم تنبث الصاعات الفارسية والبيزنطية أن اختلطت ونشأ منها صناعة جديدة هي الصناعة العربية وأجمل هذه الصاعات الجوامع والقصور والجامع عبارة عن قاعة كبرى يجتمع فيها المؤمنون وفي الفناء حوض ماء يتوضون منه ومأذنة تنهي بسطح ومنه ينادي المؤذن المؤمنين للصلاة وكانت القاعة العظيمة في قرطبة تقسم إلى أحد عشر صفاً من السواري والقصر العربي هو بيت نزهة يكون بحسب عادة البلاد الحارة ولا يبدو منه إلى الخارج إلا حوائط عارية. والقاعات كسب في الدور القديمة متجهة نحو فناء (صحن) داخلي معروس بالأشجار ويرطب هواءه حوض ماء وفي صحن الأسود في قصر الحمراء في غرناطة يجلس الماء من كأس عظيمة من الرخام الأبيض يحتملها اثنا عشر أسداً من الرخام الأسود والفناء يحيط به من الشواطئ سوار يتألف منها رواق والسواري العربية رقيقة عالية عني مثال الهندسة الفارسية فلا تحمل إلا حوائط رقيقة خفيفة من الجبس أو المالاط والقناطر التي تجمع بين السواري هي عني شكل رسم البيكارين أو هلال أو قرن فهي هندسة جميلة خفيفة سريعة العطب كأنها أصحاف كتاب بالمقوى. وليس للعرب نقش ولا تصوير لأن القرآن حرم عليهم تمثيل الأشخاص فبدلاً من التماثيل والصور تصوروا أن يصوروا الحوائط بألوان زاهية وأكاليل من الزهر والورق وآيات من القرآن وأشكال هندسية مشبكة وهذه الزين التي أصبحت عني الدهر محتنطة مرتبكة لا تعمل لها إلا في خيال رساميهما قد حفظت أسماء محترعها فقالوا عنها أرابيسن أي النقوش عني هيئة النباتات والأوراق.

مخطوطات ومطبوعات

الجنوع المشتل عني الدرر